بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ)) ((**عبس وتـولى . أن جـاءه**)) **الأعمى**)) ((**عبس وتـولى . أن جـاءه الأعمـى**)) هـذا العـابس والمتـولي هـو رسـول اللـه صـلى اللـه عليـه وآلـه وسـلم. ومعنـى ((**عبس**)) أي كلح في وجهـه يعنـي اسـتنكر الشـيء بـوجهه. ومعنـى ((**تــولى**)) أعــرض. والمــراد بـــالأعمى فــي قــوله: ((**أن جــاءه الأعمى**)) عبد الله بن عمرو ابن أم مكتوم رضي الله عنه، فـإنه جـاء إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم قبل الهجرة وهو في مكـة، وكـان عنده قوم من عظماء قريش يطمع النبي صلى الله عليـه وآلـه وسـلم في إسلامهم، ـ ومن المعلوم أن العظمـاء والأشـراف إذا أسـلموا كـان ذلك سبباً لإسلام من تحتهـم وكـان طمـع النـبي صـلى اللـه عليـه وآلـه وسلّم فيهم شديداً ـ فجاء هذا الأعمى يسأل النبي صلى الله عليه وآلـه وسلم وذكروا أنه كان يقول: علمني مما علمك اللـه ويسـتقرىء النـبي صلى الله عليه وآله وسلم فكان النبي عليه الصلاة والسلام يعرض عنه وعبس في وجهه رجاءً وطمعاً في إسلام هؤلاء العظماء وكأنه خاف أن هؤلاء العظماء الشياطين يزدرون النبي صلى الله عليه وآلـه وسـلم إذا وجه وجهه لهذا الرجل الأعمى، كأنه خاف أن يزدروا النـبي صـلى اللـه عليه وآله وسلم إذا أقبل على مثل هـذا الرجـل الأعمـى وأعـرض عـن هؤلاء العظماء، فكان النبي عليه الصـلاة والسـلام فـي عبوسـه وتـوليه يلاحظ هذين الأمرين. الأمر الأول: الرجاء فـي إسـلام هـؤلاء العظمـاء. والأمر الثاني: ألا يزدروا النبي صلى اللـه عليـه وآلـه وسـلم فـي كـونه يلتفت إلى هذا الرجل الأعمى الذي هو محتقر عندهم، ولا شك أن هـذا اجتهاد من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وليـس احتقـاراً لابـن أم مكتوم؛ لأننا نعلـم أن النـبي صـلى اللـه عليـه وسـلّم لا يهمـه إلا أن تنتشر دعوته الحق بين عباد الله، وأن الناس عنده سواء بـل مـن كـان أشد إقبالاً على الإسلام فهو أحب إليه هذا ما نعتقـده فـي رسـول اللـه صلى الله عليه وآله وسلم. قال الله تعالى: ((**وما يدريك**)) أي: أي شيء يريبك أن يتزكى هذا الرجل ويقـوى إيمـانه. ((**لعلـه**)) أي لعـل ابن أم مكتوم ((**يزكى**)) أي يتطهر من الذنوب والأخلاق التي لا تليق بأمثاله، فإذا كان هذا هو المرجو منه فإنه أحـق أن يلتفـت إليـه. ((**أو يذكر فتنفعه الذكرى**)) يعني وما يدريك لعله يذكر أي يتعظ فتنفعه الموعظة فإنه رضي الله عنه أرجى من هـؤلاء أن يتعـظ ويتـذكر. ثـم قال: ((**أَمَّا مَنِ اسْـتَغْنَى * فَـأَنتَ لَـهُ تَصَـدَّى * وَمَـا عَلَيْـكَ أَلاَّ**

يَزَّكَّـى)) ((**أَمَّـا مَـنِ اسْـتَغْنَى**)) يعنـي اسـتغنى بمـاله لكـثرته، واستغنى بجاهه لقوته فهذا ((**فأنت له تصدى**)) أي تتعرض وتطلب إقباله عليك وتقبل عليه. ((**وما عليك ألا يزكى**)) يعني ليس عليـك شيء إذا لم يتزك هذا المستغني؛ لأنـه ليـس عليـك إلا البلاغ، فتجـدون أيها الأخوة أن الله سبحانه وتعالى بيّن أن ابن أم مكتوم رضي الله عنه أقرب إلى الـتزكّي مـن هـؤلاء العظمـاء، قـال: ((**وما يـدريك لعلـه يزكى**)) وأن هـؤلاء إذا لـم يـتزكوا مـع إقبـال الرسـول عليـه الصـلاة والسـلام عليهـم فـإنه ليـس عليـه منهـم شـيء. ((**ومـا عليـك ألا يزكى**)) يعني ليس عليك شـيء إذا لـم يـتزكّ لأن إثمـه عليـه وليـس عليك إلا البلاغ. ثم قال تعالى: ((**وَأَمَّـا مَـن جَـآءَكَ يَسْـعَى * وَهُـوَ يَخْشَـى * فَـأَنتَ عَنْـهُ تَلَهَّـى**)) هـذا مقابـل قـوله: ((**أمـا مـن استغنى. فأنت له تصدى**)). ((**وأمـا مـن جـاءك يسـعى**)) أي يستعجل من أجل انتهاز الفرصة إلى حضور مجلـس النـبي صـلى اللـه عليه وآله وسلم **((وهو يخشى**)) أي يخاف الله عز وجل بقلبـه. ((**فأنت عنـه تلهـى**)) أي تتلهـى عنـه وتتغافـل، لمـاذا؟ لأنـه انشـغل برؤساء القوم لعلهم يهتدون. ((**كلا**)) يعنـي لا تفعـل مثـل هـذا ولهـذا نقول: إن ((**كلا**)) هنا حرف ردع وزجر أي لا تفعل مثـل مـا فعلـت. ((**إنها تذكرة**)) ((**إنها**)) أي الآيـات القرآنيـة الـتي أنزلهـا اللـه علـى رسوله صلى الله عليـه وآلـه وسـلم. ((**تذكرة**)) تـذكر الإنسـان بمـا ينفعه وتحثه عليه، وتذكر له ما يضره وتحذره منه ويتعظ بها القلب. ((**فمن شاء ذكره**)) أي فمن شاء ذكر ما نزل مـن الموعظـة فـاتعظ، ومن شاء لم يتعظ لقول الله تعالى: ((**وقل الحق من ربكم فمـن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر**)). فـالله جعـل للإنسـان الخيـار، الخيار قدراً أما شرعاً فلا، جعـل لـه الخيـار بيـن أن يـؤمن ويكفـر، أمـا شرعاً فإنه لا يرضى لعباده الكفـر، وليـس الإنسـان مخيـرا شـرعاً بيـن الكفر والإيمان بل هو مأمور بالإيمان ومفروض عليه الإيمان، لكـن مـن حيث القدر هو مخير وليس كما يزعم بعض الناس مسيراً مجـبراً علـى عمله، بل هذا قول مبتدع ابتدعه الجبرية من الجهمية وغيرهم. الإنسان في الحقيقة مخير ولـذلك إذا وقـع الأمـر بغيـر اختيـاره مثـل أن يكـون مكرهاً فإنه لا بفعله، المهـم أن اللـه عـز وجـل يقـول: ((**فمن شـاء ذكره**)) أي ذكر ما نزل من الـوحي فـاتعظ بـه، يعنـي ومـن شـاء لـم يذكره، والموفق من وفقه الله عز وجـل. **((في صـحف مكرمـة** *

مرفوعة مطهرة * بأيدي سفرة * كـرام بـررة)). أي أن هـذا الذكر الذي تضمنته هذه الآيات ((**في صحف مكرمة**)) معظمة عند الله، والصحف جمع صحائف، والصحائف جمع صـحيفة وهـي مـا يكتـب فيه القول.هذه الصحف ((**بأيدي سفرة**)) السفرة الملائكة، وسموا سفرة لأنهم كتبة مأخوذة من السَّفَر أو من السَّفْرِ وهو الكتـاب كقـوله تعـالى: ((**كمثـل الحمـار يحمـل أسـفاراً**)) . وقيـل: السـفرة الوسطاء بين الله وبين خلقه، من السفير وهـو الواسـطة بيـن النـاس، ومنه حديث أبي رافع رضي اللـه عنـه أن النـبي صـلى الله عليـه وآلـه وسلم تزوج ميمونة قبل أن يحرم قال: " **وكنـت السـفير بينهمـا** " أي الواسطة. المهم أن السفرة هم الملائكة وسموا سفرة لأنهـم كتبـة يكتبون، وسموا سفرة لأنهم سفراء بين الله وبين الخلق، فجبريل عليه الصلاة والسلام واسـطة بيـن اللـه وبيـن الخلـق فـي النـزول بـالوحي، والكتبة الذين يكتبون ما يعمل الإنسان أيضاً يكتبونه ويبلغـونه إلـى اللـه عز وجل، واللـه تعـالى عـالم بـه حيـن كتـابته وقبـل كتـابته. ((**بأيدي سفرة .كرام بررة**)) كرام فـي أخلاقهـم. كـرام فـي خلقتهـم أيضـاً لأنهم على أحسن خلقة، وعلى أحسن خُلق، ولهذا وصف الله الملائكـة بأنهم كرام كاتبون يعلمون ما تفعلون، وأنهم عليهم الصـلاة والسـلام لا يستكبرون عن عبادة اللـه ولا يستحسـرون. يسـبحون الليـل والنهـار لا يفترون. هذه الآيات كما سمعتم فيها تأديب من الله عز وجل للخلق ألا يكون همهم هَّما شخصيًّا بل يكون همهم هَّمـا معنويًّـا وألا يفضّـلوا فـي الدعوة إلى الله شريفاً لشرفه، ولا عظيماً لعظمته، ولا قريباً لقربه، بل يكون الناس عندهم سواء في الدعوة إلى الله الفقيـر والغنـي، الكـبير والصغير، القريب والبعيد، وفيها أيضاً تلطـف اللـه عـز وجـل بمخاطبـة النبي صلى الله عليه وآله وسلم فقال فـي أولهـا: **((عبس وتـولى. أن جاءه الأعمى**)) ثلاث آيات لم يخاطب الله فيها النبي صـلى اللـه عليه وآله وسلم لأنها توبيخ شديد فلو وجهـت إلـى الرسـول بالخطـاب لكان فيه ما فيـه لكـن جـاءت بالغيبـة ((**عبس**)) وإلا لكـان مقتضـى الحال أن يقول: عبست وتـوليت، أن جـاءك الأعمـى،ومـا يـدريك لعلـه يزكى، ولكنه قال: **((عبس وتولى**)) فجعل الحكـم للغـائب كراهيـة أن يخاطب النبي صلى الله عليه وآلـه وسـلم بهـذه الكلمـات الغليظـة الشديدة، ولأجل ألا يقع بمثل ذلك من يقع من هذه الأمة، والله سبحانه وتعالى وصف كتابه العزيز بـأنه بلسـان عربـي مـبين، وهـذا مـن بيـانه.

وفي الآيات أيضاً دليل على جواز لقب الإنسان بوصفه مثل الأعمى والأعرج والأعمش، وقد كان العلماء يفعلون هذا، فما أكثر ما يرد عليكم: الأعرج عن أبي هريرة، الأعمش عن ابن مسعود... وهكذا، قال أهل العلم واللقب بالعيب إذا كان المقصود به تعيين الشخص فلا بأس به، وأما إذا كان المقصود به تعيير الشخص فإنه حرام؛ لأن الأول ــ إذا كان المقصود به تبيين الشخص ـ تدعو الحاجة إليه، والثاني ــ إذا كان المقصود به التعيير ـ فإنه لا يقصد به التبيين وإنما يقصد به الشماتة وقد جاء في الأثر " **لا تظهر الشماتة في أخيك فيعافيه الله ويبتليك** "، والله نسأل العافية والسلامة في الدنيا والآخرة، وإلى هنا ينتهي بنا القول على ما يسر الله من آياته في هذه السورة. قوله تعالى: ((**بأيدي سفرة . كرام بررة**)). ثم قال جل وعلا: ((**قتل الإنسان ما أكفره**))))**قتل ((** تأتي في القرآن كثيراً فمن العلماء من يقول: إن معناها لعن، والذي يظهر أن معناها أُهلك؛ لأن القتل يكون به الهلاك وهو أسلوب تستعمله العرب في تقبيح ما كان عليه صاحبه فيقولون مثلاً: قتل فلان ما أسوأ خلقه، قتل فلان ما أخبثه وما أشبه ذلك. وقوله تعالى: ((**قتل الإنسان**)) قال بعض العلماء: المراد بالإنسان هنا الكافر خاصة، وليس كل إنسان لقوله فيما بعد ((**ما أكفره**)) ويحتمل أن يكون المراد بالإنسان الجنس، لأن أكثر بني آدم كفار كما ثبت في الحديث الصحيح: أن الله يقول:(**يا آدم**) يقول ذلك يوم القيامة: (**يا آدم، فيقول: لبيك وسعديك، فيقول له الله عز وجل: أخرج من ذريتك بعثاً إلى النار. فيقول: يا رب، وما بعث النار؟ قال: من كل ألف تسع مئة وتسعة وتسعون**) كلهم في النار وواحد من الألف في الجنة، فيكون المراد بالإنسان هنا الجنس ويخرج المؤمن من ذلك بما دلت عليه النصوص الأخرى. وقوله: ((**ما أكفره**)) قال بعض العلماء إن ((**ما**)) هنا استفهام أي: أي شيء أكفره؟ ما الذي حمله على الكفر؟ وقال بعض العلماء: إن هذا من باب التعجب يعني ما أعظم كفره! وإنما كان كفر الإنسان عظيماً لأن الله أعطاه عقلاً، وأرسل إليه الرسل، وأنزل عليه الكتب وأمده بكل ما يحتاج إلى التصديق، ومع ذلك كفر فيكون كفره عظيماً. والفرق بين القولين أنه على القول الأول تكون ((**ما**)) استفهامية أي: ما الذي أكفره؟ وعلى القول الثاني تكون تعجبية يعني عجباً له كيف كفر مع أن كل شيء متوفر لديه في بيان الحق

والهدى!! والكفر هنا يشمل كل أنـواع الكفـر، ومنـه إنكـار البعـث فـإن كثيراً من الكفار كذبوا بالبعث، وقالوا: لا يمكن أن يُبعث الناس بعــد أن كانت عظامهم رميماً كمـا قـال تعـالى: ((**وضرب لنـا مثلاً ونسـي خلقه قال من يحيي العظام وهي رميم**)). ولهذا قال: ((**مـن أي شيء خلقه**)) استفهام تقرير لما يأتي بعـده فـي قـوله: ((**مـن نطفة خلقه**)) يعني أنت أيها الإنسـان كيـف تكفـر بـالبعث؟ مـن أي شيء خلقت؟ ألم تخلق من العـدم؟ لـم تكـن شـيئاً مـذكوراً مـن قبـل فوجدت وصرت إنساناً فكيف تكفر بالبعث؟ ولهذا قال: ((**من نطفة خلقه**)) والنطفة هي في الأصـل المـاء القليـل، والمـراد بـه هنـا مـاء الرجل الدافق الذي يخرج من بيـن الصـلب والـترائب يلقيـه فـي رحـم المـرأة فتحمـل، ((**من نطفـة خلقـه فقـدره**)) أي جعلـه مقـدراً أطواراً: نطفة، ثم علقة، ثم مضغة، كما في الحديث الصـحيح عـن ابـن مسعود رضي الله عنه قال: حدثنا رسول الله صـلى اللـه عليـه وعلـى آله وسلم وهو الصادق المصدوق فقـال: (**إن أحدكم يجمـع خلقـه في بطن أمه أربعين يوماً نطفة، ثم يكون علقة مثـل ذلـك، ثم يكون مضغة مثل ذلك، ثم يرسل إليه الملـك فينفـخ فيـه الروح ويـؤمر بـأربع كلمـات: بكتـب رزقـه، وأجلـه، وعملـه، وشقي أو سـعيد، فـو الـذي لا إلـه غيـره إن أحـدكم ليعمـل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع، فيســبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهـل النـار فيـدخلها، وإن أحـدكم ليعمل بعمل أهل النار حـتى مـا يكـون بينـه وبينهـا إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها**). فهــو مقدر في بطن أمه من الذي يقدره هذا التقدير؟ من الذي يوصـل إليـه ما ينمو به من الدم الذي يتصل به بواسطة السرة من دم أمه؟ إلا الله عز وجل، ولهذا قال: ((فقدره)) . ((**ثم السبيل يسـره**)) السـبيل هنا بمعنى الطريق يعني يسر لـه الطريـق ليخـرج مـن بطـن أمـه إلـى عالم المشاهدة، ويسر له أيضاً بعد ذلك ما ذكـره تعـالى فـي قـوله: ((**وهديناه النجدين**)). يسر له ثديي أمـه يتغـذى بهمـا، ويسـر لـه بعـد ذلك ما فتح له من خزائن الرزق، ويسر له فوق هذا كلـه ومـا هـو أهـم وهو طريق الهدى والفلاح وذلك بما أرسل إليه مـن الرسـالات، وأنـزل عليه من الكتـب، ثـم بعـد هـذا ((**أماته فأقبره**)) المـوت مفارقـة الروح للبدن. ((**فأقبره**)) أي جعله في قـبر، أي مـدفوناً سـتراً عليـه

وإكراماً واحتراماً؛ لأن البشر لو كانوا إذا ماتوا كسائر الميتات جثثاً ترمى في الزبائل لكان في ذلك إهانة عظيمة للميت ولأهل الميت، ولكن من نعمة الله سبحانه وتعالى أن شرع لعباده هذا الدفن، ولهذا قال ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى: ((**فأقبره**)) قال: أكرمه بدفنه. ((**ثم إذا شاء أنشره**)) أي إذا شاء الله عز وجل ((**أنشره**)) أي بعثه يوم النشور ليجازيه على عمله. وقوله: ((**ثم إذا شاء أنشره**)) يعني أنه لا يعجزه عز وجل أن ينشره لكن لم يأتِ أمر الله بعد ولهذا قال ((**كلا لما يقضي ما أمره**)) ((**لما**)) يعني لما بمعنى "لم " لكنها تفارقها في بعض الأشياء، والمعنى أن الله تعالى لم يقضِ ما أمره، أي ما أمر به كوناً وقدراً، أي أن الأمر لم يتم لنشر أو لإنشار هذا الميت بل له موعد منتظر، وفي هذا رد على المكذّبين بالبعث الذين يقولون لو كان البعث حقًّا لوجدنا آباءنا الآن، وهذا القول منهم تحدي مكذوب؛ لأن الرسل لم تقل لهم إنكم تبعثون الآن، ولكنهم قالوا لهم إنكم تبعثون جميعاً بعد أن تموتوا جميعاً. ثم قال عز وجل مذكراً للإنسان بما أنعم الله عليه ((**فَلْيَنظُرِ الإِنسَنُ إِلَى طَعَامِهِ . أَنَّا صَبَبْنَا الْمَآءَ صَبّاً**)). أي فلينظر إلى طعامه من أين جاء؟ ومن جاء به؟ وهل أحدٌ خلقه؟ لا، وينبغي للإنسان أن يتذكر عند هذه الآية قول الله تبارك وتعالى: ((**أفرأيتم ما تحرثون. أأنتم تزرعونه أم نحن الزارعون. لو نشاء لجعلناه حطاماً فظلتم تفكهون. إنا لمغرمون بل نحن محرومون**)). من الذي زرع هذا الزرع حتى استوى ويسر الحصول عليه حتى كان طعاماً لنا؟ هو الله عز وجل، ولهذا قال ((**لو نشاء لجعلناه حطاماً**)) بعد أن نخرجه نحطمه حتى لا تنتفعوا به. ((**أفرأيتم الماء الذي تشربون . أأنتم أنزلتموه من المزن أم نحن المنزلون . لو نشاء جعلناه أجاجاً فلولا تشكرون**))، وهنا يقول ((**فلينظر الإنسان إلى طعامه**))، من أين جائك؟ ((**أنا صببنا الماء صبًّا**)) يعني من السحاب ((**ثم شققنا الأرض شقًّا**)) بعد نزول المطر عليها تتشقق بالنبات. ((**فأنبتنا فيها**)) أي في الأرض ((**حَبّاً * وَعِنَباً وَقَضْباً * وَزَيْتُوناً وَنَخْلاً . وَحَدَآئِقَ غُلْباً**))، ((**فأنبتنا فيها حباً**)) كالبر والرز والذرة والشعير وغير ذلك من الحبوب الكثيرة ((**وعنباً**)) معروف ((**قضباً**)) قيل: إنه القت المعروف ((**زيتوناً**)) معروف ((**نخلاً**)) معروف ((**وحدائق غلباً**)) الحدائق جمع حديقة،

والغلب كثيرة الأشجار ((**وفاكهة**)) يعني ما يتفكه به الإنسان من أنواع الفواكه ((**وأبًّا**)) الأب نبات معروف عند العرب ترعاه الإبل ((**متاعاً لكم ولأنعامكم**)) يعني أننا فعلنا ذلك متعة لكم، يقوم بها أودكم، وتتمتعون بها أيضاً بالتفكه بهذه النعم .ثم لما ذكر الله عز وجل، لما ذكر الإنسان بحاله منذ خلق من نطفة حتى بقي في الدنيا وعاش، ذكر حاله الأخيرة في قوله: ((**فَإِذَا جَآءَتِ الصَّآخَّةُ**)) يعني الصيحة العظيمة التي تصخ الآذان، وهذا هو يوم القيامة ((**يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ . وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ . وَصَحِبَتِهُ وَبَنِيهِ**)) من ((**أخيه**)) شقيقه أو لأبيه أو لأمه ((**وأمه وأبيه**)) الأم والأب المباشر، والأجداد أيضاً، والجدات يفر من هؤلاء كلهم ((**وصاحبته**)) زوجته ((**وبنيه**)) وهم أقرب الناس إليه وأحب الناس إليه. يفر من هؤلاء كلهم. قال أهل العلم: يفر منهم لئلا يطالبوه بما فرط به في حقهم من أدب وغيره، لأن كل واحد في ذلك اليوم لا يحب أبداً أن يكون له أحد يطالبه بشيء . وقال ((**لكل امرىء منهم يومئذ شأن يغنيه**)) كل إنسان مشتغل بنفسه لا ينظر إلى غيره، ولهذا لما قال النبي عليه الصلاة والسلام: (**إنكم تحشرون يوم القيامة حفاة، عراة، غرلاً**) قالت عائشة ـ رضي الله عنها ـ: يا رسول الله ، الرجال والنساء ينظر بعضهم إلى بعض ؟ قال النبي صلى الله عليه وسلّم: (**الأمر أعظم من أن ينظر بعضهم إلى بعض**). ثم قسّم الله الناس في ذلك اليوم إلى قسمين فقال: ((**وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ * ضَحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ**)) مسفرة من الإسفار وهو الوضوح لأنها وجوه المؤمنين تُسفر عما في قلوبهم من السرور والانشراح ((ضاحكة)) يعني متبسمة، وهذا من كمال سرورهم ((**مستبشرة**)) أي قد بشرت بالخير لأنها تتلقاهم الملائكة بالبشرى يقولون ((**سلام عليكم**)). ((**ووجوه يومئذ**)) يعني يوم القيامة ((**عليها غبرة**)) أي شيء كالغبار؛ لأنها ذميمة قبيحة. ((ترهقها قترة)) أي ظلمة ((**أولئك هم الكفرة الفجرة**)) الذين جمعوا بين الكفر والفجور، نسأل الله العافية .